فتح طارق ابن زياد
بلاد الأندلس

بقلم عبد العظيم على فناوى
المدرس بمدرسة المعادى الابتدائية

قضى الأمر — أو كاد — واندثرت حضارة أسسها فى الغرب الإسلام على أيدى رجاله الأمجاد ، من اثنى عشر قرناً ونصف قرن على قوائم وطيدة من العلم والعرفان ، ورواسى راسخة من الإصلاح والعمران ، فزها العالم بتلك الحضارة غربيه وشرقيه قروناً عدة ؛ هذا لأنه مصدرها ، وذاك لأنه مهبطها ، رفع الإسلام فى ذلك الدهر أعلام المحبة والمودة ، فكان الدين السمح لا تعرف الموجدة قلوب أبنائه ، والمشرع العذب لا يُحَلَّأ أحد دون رشف مائه ، والشرع الحنيف لا يصيب بغير الحكمة والموعظة من أعدائه ، فدعا أبناء ذلك الدين الفاتح أهل تلك البلاد إلى التعاطف ؛ لا بين المسلمين وبينهم فحسب ، بل بين المسيحيين بعضهم على بعض ، وبين أولئك وبين اليهود ؛ حقناً للدماء ، وإبقاء على النماء ، وإخلاداً إلى العمل الجدى ، وتفرغا لدعوة الحق ، فأزهرت البلاد أيما إزهار ، وازدهرت مقاطعاتها أعظم ازدهار ؛ حتى لقد كانت فتنة الأجيال فى الروعة والجمال ، فلها الفنون لا تدانى ، والصناعات لا تحاكى ، والمعارف لا تبارى ، والآثار لا تسامى ؛ على رغم ما كان يُكاد الموكها ليلاً ونهارا ، إعلاناً وإسرارا ؛ يتقونه بكل تقية ويفتدونه بأى وسيلة لا تبيح حرمة ، ولا تهدر كرامة ، فكم هادنوا وحالفوا لا جبناً ولكن حفاظاً على دماء غالية أن تهدر ، وكم حاربوا وناخوا لا ولعاً بتأريث البغضاء بل استئصالاً للداء أن يستشرى ؛ حتى أدركها ما يدرك كل كائن وأصابها ما يصيب السامق الصاعد من خفوق وهبوط ، وسقوط وحبوط ، فأخذت تدب فيها عوامل الوهن والفناء ، وتسرى فى أوصالها الأوباء والأدواء ، على قوة مناعتها وحصانة بيئتها ، ولكن الأعداء — وقد حشدوا لها أعظم حشد —

وقفوا لها كل مرصد ، وشهروا فى وجوه أبطال الفتح ، والعلم ، والسلم كل منعمد حتى هوى نجم الرشد والهداية ، وسقط علم المدنية والحضارة ، وطرد العرب منها من القرن الخامس عشر الميلادى إلى أوائل القرن السابع عشر ، وبلغ عدد المطرودين نحو ثلاثة ملايين عربى « كانوا نخبة المسلمين وأعظمهم صناعة وعلما ، فكان ما حدث للمسلمين من الفرنج أمام ضعفهم فى إسبانيا ، وما حدث منهم فيها أمام قوتهم وإمكانهم تنصير الفرنج بالقوة من الرحمة بالضعيف وحرية الدين حادثة يراها — حتى من لا يريد أن يرى — ، ويستدل بها على مبلغ الفرق بين آداب الأمتين[1] » ورحم الله أمير الشعراء أحمد شوقى بك ؛ إذ يقول :

نزل الهلال عن السماء فليتها طويت وعم العالمين ظلام
أزرى به وأزاله عن أوجه قدر يحط البدر وهو تمام

والآن — وقد أفنى بعض أبناء تلك الأمة العربية بآثارها العريقة بمخلفاتها بعضا ، وخربوا ما عمر لهم العرب ، ونقضوا ما أقاموا من حضارة لم يستطع أن ينال منها كر الليالى والأيام فنالت منها صواعق المدافع ، ومن آثار سخرت من الدهر ، فسخر عليها وارثوها قذائف الطير — نرى إحياء ذكرها أسى على مدنية ضاعت فى عصر يزعمون أنه عصر المدنية ، وحزناً على حضارة طواها من يدعون محيي الحضارات ، فى قارة يسمونها حقاً سيدة القارات ، ولا علينا إن ذكرنا ، فإن الذكرى تنفع المؤمنين ، ولا إخالها إلا نافعة مجدية

الفتح

فتحت الأندلس مختتم سنة ثنتين وتسعين هجرية فى عهد أمير المؤمنين « الوليد بن عبد الملك » بعد أن استأذنه فى فتحها عامله على إفريقية « موسى ابن نصير » وكان قائداً بطلاً « عاقلاً شجاعاً كريماً تقياً لله تعالى ، ولم يهزم له جيش قط ، وكان والده نصير على جيش معاوية ، ومنزلته لديه مكينة » ، فهو قد ورث القيادة كابراً عن كابر ، فأذن له بعد أن أيقن أنه لا خطر على جيوش المسلمين ؛

(١) دائرة معارف القرن الرابع عشر الهجرى للأستاذ فريد وجدى المجلد الأول ص ٦٦٢

إذ كتب إليه الخليفة ناصحاً : « خضها بالسرايا حتى ترى ، ولا تغرر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال » ، فنفذ موسى أمر مولاه ، وأنفذ السرايا ، فلم يصب إحداها سوء ، وحينئذ نثر موسى كنانته ، وعجم أعوادِ أعوانه ، فلم يجد أشد بأساً ، ولا أصلب عوداً ، ولا أوفى حزماً ، ولا أصدق عزماً ، ولا أندى صوتاً ، ولا أروع بياناً من طارق والى « طنجة » ، ومتى اجتمعت كل هاتيك الصفات فى رجل فالنصر أول همـه ، فقلده قيادة الجيش ، ولا يذكر المؤرخون الشىء الكثير عن شخصه ، فهم غير متفقين حتى فى نسبه ، فيرى بعضهم أنه عربى ينتسب إلى كندة ، ويزعم آخرون أنه إفريقى متعرب ، ولكنى أوثر الرأى الأول ؛ لفصاحته ، وشدة مُنته ، ولأن موسى فى ذكائه وفطنته ما كان ليطمئن فى مثل هذا الأمر الجلل إلى غير العربى ، على أنه لا يعنينا نسبه كثيراً ، فقديماً قيل : « أصل الفتى ماقد حصل » وهذا شأن طارق ؛ إن لم يكن ذا حسب ونسب ، ومال ونشب ، فقد كان ذا عزمة فتية ، وإرادة حديدية ، ويجمل بنا قبل حديث الفتح أن نلم إلمامة وجيزة ببعض أسبابه :

أولاً : عرفت الأندلس بالحسن والجمال ، والغنى والثروة ، فتربتها خصبة ، وحدائقها نضرة ؛ تجرى من تحتها الأنهار ، وتجنى منها الأثمار والأزهار ، وهى وفيرة الغنى بالمعادن ، ففيها الذهب والفضة والشبه والنحاس ؛ وبها النفائس الغالية ، والجواهر النادرة ، وهذا قل من كثر مما وصفت به فى النثر والشعر قال أبو عبيد البكرى :

« الأندلس شامية فى طيبها وهوائها ، يمانية فى اعتدالها واستوائها ، هندية فى عطرها وذكائها ، أهوازية فى عظم جبايتها ، صينية فى جواهر معادنها ، عدنية فى منافع سواحلها ، فيها آثار عظيمة لليونانيين أهل الحكمة ، وحاملى الفلسفة » وقال الوزير لسان الدين ابن الخطيب [1] :

« خص الله بلاد الأندلس من الريع وغدق السقيا ، ولذاذة الأقوات ، وفراهة الحيوان ، ودرُور الفواكه ، وكثرة المياه ، وتبحر العمران ، وجودة اللباس ،

(١) نفح الطيب الجزء الثانى ص ١٤٩ « الطبعة الأخيرة »

وشرف الآنية ، وكثرة السلاح ، وصحة الهواء ، وابيضاض ألوان الإنسان ، ونيل الأذهان ، وفنون الصنائع ، وشهامة الطباع ، ونفوذ الإدراك ، واحتكام التمدن والاعتمار بما حرمه الكثير من الأقطار مما سواها » ؛ وقال غيرها :

« إنها جزيرة قد أحدقت بها البحار ، فأكثرت فيها الخصب والعمارة ، فمتى سافرت فيها من مدينة إلى مدينة ، لا تكاد تنقطع من العمارة ، ما بين قرى ومياه ومزارع ، والصحارى فيها معدومة ، ومما اختصت به أن قراها غاية من الجمال ؛ لتصنع أهلها فى أوضاعها وتبييضها لئلا تنبو عنها العيون ، فهى كما قيل :

لاحت قراها بين خضرة أيكها كالدر بين زبرجد مكنون

وما قاله الشعراء فيها أنصع وأبدع ، فهم ليسوا فى حاجة إلى استيحاء الخيال أو تخيل الجمال ، فحسبهم أن ينظروا ليشعروا ، ويتأملوا ليرتلوا ، ويسمعوا شدو البلابل ، ليوقعوا على قيثارة المفاعل ؛ فمن ذلك قول ابن سفر المريني :

فى أرض أندلس تلتذ نعماء ولا يفارق فيها القلب سراء
وليس فى غيرها بالعيش منتفع ولا تقوم بحق الأنس صهباء
وأين يعدل عن أرض تحض بها على المدامة أمواه وأفياء ؟
وكيف لا يبهج الأبصار رؤيتها وكل روض بها فى الوشي صنعاء ؟
أنهارها فضة ، والمسك تربتها ، والخز روضتها ، والدر حصباء
وللهواء بها لطف يرق به من لا يرق وتبدو منه أهواء
ليس النسيم الذى يهفو بها سحرا ولا انتشار لآلى الطل أنداء
وإنما أرج الند استثار بها فى ماء ورد فطابت منه أرجاء
وأين يبلغ منها ما أصنفه ؟ وكيف يحوى الذى حازته إحصاء ؟

وحسبنا هذا ، فما قيل فى وصفها كثير ، من نظيم ونثير

ثانياً : رغبة الخلفاء والأمراء فى نشر الاسلام ، ورفع ألويته فوق ربوع العالم ؛ حتى يسود المعمورة نظامه ، وتشمل الكون تعاليمه ، ويدين لذلك الدين المسماح الشرق والغرب

ثالثاً : اضطراب الأمر بين أمرائها ، وتفكك عناصرها ، والإحن تأكل

صدور كبرائها ، والأحقاد تنشى بصائر زعمائها ؛ فهذا يبكى ملكا سلب ، وذاك يندب عرضاً انتهك ، وثالث يشكو ظلماً عم ، مما جعل كل فرد فى نفسه شيعة ، وكاد يسعى لأخيه بالدس والوقيعة ، هذا إلى ما تسامعوا به عن عدالة العرب فى حكومتهم ، وتأمين الناس على دينهم وثروتهم ، ومساواتهم فى الحقوق بين خاصتهم وعامتهم ، حتى جعلوا العدل أساس ملكهم ، وصيروا التآلف والإخاء شعار مجدهم

تلك الأسباب وسواها هي التى حملت موسى بن نصير إلى أن يستمع إلى مشورة يليان أمير « سبتة » فى الفتح ؛ حتى يخلو له الجو من لذريق مليكه عدوه اللدود ؛ لسلبه عرض ابنته كرهاً ، « وقد كان من سير أكابر الأعاجم بالأندلس وقوادهم أن يبعثوا أولادهم الذين يريدون منفعتهم ، والتنويه بهم إلى بلاط الملك الأكبر بطليطلة ؛ ليصيروا فى خدمته ، ويتأدبوا بأدبه ، وينالوا من كرامته ؛ حتى إذا بلغوا ، أنكح بعضهم بعضا ، استئلافاً لآبائهم ، وحمل صدقاتهم ، وتولى تجهيز إناثهم إلى أزواجهن ، فاتفق أن فعل ذلك يليان عامل لذريق على « سبتة » وكانت يومئذ فى يد صاحب الأندلس ، وأهلها على النصرانية ، ركب الطريقة بابنة له بارعة الجمال[1] تكرم عليه ، فلما صارت عند لذريق وقعت عينه عليها فأعجبته ، وأحبها حباً شديداً ، ولم يملك نفسه حتى استكرهها وافتضها ، فاحتالت حتى أعلمت أباها بذلك سراً بمكاتبة خفية ، فأحفظه شأنها جدا ، واشتدت حميته وقال : ودين المسيح لأزيلن ملكه وسلطانه ، ولأحفرن تحت قدميه ، فكان امتعاضه من فاحشة ابنته هو السبب فى فتح الأندلس بالذى سبق من قدر الله تعالى[2] »

جهز موسى جيشاً عدته سبعة آلاف جله إفريقيون وقله عرب ، ومن « طنجة » إخترق به طارق المضيق على أربع سفن ليوليان ، وكان لطارق العين الساهرة ، واليد الضاربة ، والرأى الحازم ، والعزم الصارم ؛ ليثل عرش سالب شرفه ومقوض مجده لذريق ، فما زالت السفن تنقل الجيش حتى توافى بالجبل المسمى الآن « جبل طارق » ومنه سار طارق فاتحاً حتى فتح فرضة الأندلس

(١) كانت تدعى « فلورندا »

(٢) ورد بالجزء الثانى من النفح صفحة نمرة ١٧٠٥ (الطبعة الأخيرة)

« الجزيرة الخضراء » وبلغ لذريق الخبر فوقع عليه وقع الصواعق ، وسار من « قرطبة » فى جيش جرار يتراوح بين السبعين ألفاً ومائة ألف ، فلم تضطرب لطارق سكينة ، ولا تزعزعت له عزيمة ، ولكنه أخذ بالحزم ، فبعث إلى موسى يسأله مددا ، فأمده بخمسة آلاف على سفن أعدها ، ولما تكامل الجيش أحرق طارق السفن ؛ حتى يقطع على الجيش أمل العودة إلى بلادهم إن لم يتح لهم النصر ، وقام فى الجيش خطيباً ، فخطبهم خطبته العاصفة القاصفة التى تجعل من المنخوب الرعديد الأسدَ الصنديد ، كل كلمة من كلماتها صواعق وحمم ، وكل فقرة من فقراتها سعير يلتهب ، ويكفيها وصفاً أنها عصفت بدولة ، وقوضت دعائم مملكة ، وثلّت عرشاً مؤثلا ، وقد اشتملت على سياسة بارعة ، وحنكة رائعة ، فنّاهم وأملهم ، ووعدهم ورغبهم ، فمن هذا الذى لا يرغب أن يكون للملوك سيداً ، ولأبنائهم ربا ولبناتهم مولى ، فاسمع إليه يقول لفتيان يجرى فى عروقهم دم حار فوار : « واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا ؛ استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فما حظكم فيه أوفر من حظى ، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات فى الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التجان ، وقد انتخبكم الوليد ابن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عزبانا ، ورضيكم للوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختانا ؛ ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم لمجالدة الأبطال الفرسان »

ومما تتحدث به كتب التاريخ : « أن طارقاً رأى فى منامه النبى صلى الله عليه وسلم وحوله المهاجرون والأنصار ، قد تقلدوا السيوف ، وتنكبوا القسى ، فقال له: يا طارق ، تقدم لشأنك ؛ ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قدامه » . فاستيقظ فرحاً منتشياً يملأ الفخر عطفيه ، وبشر أصحابه . تلك رؤياه قد تكون حقيقية ؛ فالرجل مبلبل الخاطر مضطرب البال ، فليس غريباً أن يرى فى نومه ما يشغله فى يقظته ، وقد تكون خيالية دفعه إلى اختراعها رغبته فى إثارة جنده ، وبث العزيمة فى نفوسهم والحمية فى قلوبهم ، فهذا رسول الله يتقدمهم ؛ وليس هذا الخيال غريباً على من يحرق السفن حتى لا يكون فى العودة أمل

وسار بعد ذلك فأصاب عجوزاً أندلسية ، فقالت له : إنه كان لها زوج عالم بالحدثان ، فكان يحدثهم عن أمير يدخل بلادهم فاتحاً ، ويصفه بأنه ضخم الهامة ، وأنت كذلك ، وبأن فى كتفه اليسرى شامة عليها شعر ، فإن كانت بك هذه العلامة فأنت هو . فكشف طارق ثوبه فإذا بالشامة فى كتفه على ما ذكرته ، فاستبشر بذلك هو ومن معه . ورأينا فى هذه القصة رأينا فى حديث الرؤيا ، قد تكون خيالية ، فأوحى إلى العجوز بما تقول ليقوى عزائم جنوده بأكثر من برهان ؛ وكأنى به يقول لصحابته : هاتان آيتان باهرتان ، وعلامتان واضحتان بينتان ؛ فلا تخشوا عديداً كثر ، ولا عُدَداً وفرت ، فلنا النصر المؤزر ، حدثنا به النبى رؤيا ، وحدثنا به العلم بشرى

وقبل التقاء الجمعين أرسل لذريق فارساً موسوماً بالنجدة والبأس ، معروفاً بالشهامة والمنة ليحرز عدد جيش طارق ، فرآه جنود المسلمين ، فتواثبوا عليه يريدون الفتك به ، ولكنه نجاه جواده ، إذ سابق به الريح ، ووصل إلى سيده يلهث وهو يقول : « خذ على نفسك ، قد جاءك من لا يريد إلا الموت ، أو إصابة ما تحت قدميك ، قد أحرقوا مراكبهم إياساً لأنفسهم من التعلق بها ، وصفوا فى السهل موطنين أنفسهم على الثبات ، إذ ليس لهم فى أرضنا مهرب » . فاشتد هلع لذريق ، وعظم جزعه وفزعه ، وخارت قواه المعنوية ، على حين تضاعفت قوة جيش طارق المعنوية بما قدمنا ، وناهيك بما لها من أثر ؛ إنها تقتحم المعاقل والحصون ، وتدك القلاع والسدود ، ولها ما ليس للكتائب والفيالق من نصر مبين

وفى أواخر رمضان سنة ثنتين وتسعين التقى الجمعان بعد أن أمّن طارق أولاد غيطشة الذي اعتدى لزريق على ملكه ، فسلبه من وارثيه الشرعيين ، ومناهم طارق برد ضياعهم إليهم ، وكانت ثلاثة آلاف ضيعة ، وبرز لذريق فى جنود غفيرة وعدد وفيرة ، وقلوب منخوبة ، ونفوس مقهورة ؛ وطارق فى جيش قليلة عِدته ضئيلة عُدته ، ولكنه ذو قلوب جياشة ، ونفوس وثابة ، إن لقيت ربها فإلى الجنة وإن ظفرت بالحياة فلها الفخر والمنعة ، يحوط لذريق ملوكه وجموعه وكهنته

وبطارقته ، وتخفق فوق رأسه بنوده وألويته ، قد ركب فرساً أشهب عليه سرج من ذهب كلل بالياقوت والزبرجد ، وعلى رأسه ظلة من الديباج إن وقته وهج الشمس ؛ فإن تقيه لهب الحرب ، وفى قدميه خفان من الذهب المرصع

أما طارق وجنوده فبرزوا عليهم اللأم والزرد ، وفوق رءوسهم العمائم البيض وبأيديهم القسي ، قد تقلدوا السيوف واعتقلوا الرماح

التقى الجمعان قبيل شذونة ، وحمى وطيس الحرب ، واشتد أوارها ، واشتعلت نارها ، وإذ رأى طارق لذريق هجم عليه هجمة الأسد الهصور ، وانقض أصحابه معه انقضاض البزاة والنسور ، وأعملوا السيوف ؛ حتى تخاذلت عنه ميمنته وميسرته ، وكان قائداها ابنى غيطشة ، وتفرق من حوله ، وبقى فى شرذمة لا تصد عنه عادى المنون ، وتخلص إليه طارق ، فضربه ضربة أطاحت رأسه ، وأطاحت مع رأسه عرشه ، فلما رأى المخلصون له من جيشه مصرعه ، ثاروا واستبسلوا ، فجنت النفوس ، وتطايرت الرءوس ، وتجلدوا على ذلك أياماً انتهت بالفتح المكين والنصر المبين ، وتابع طارق الفتح ، والمدائن تفتح له صدورها بعد تمنع ، وتسلم له عذارها بعد تأب قاصد وتدلل ؛ حتى وصل إلى قرطبة فدخل فيها ، واستولى على نفائس لا يبلغها الوصف وذخائر لا يقدرها الحصر ، ومنها بعث البعوث لفتح المدن والحواضر : كمالقة وغرناطة ، وسار هو إلى طليطلة ، فلم يكن يقف فى طريق تلك البعوث إلا بغاث الطير ، لا تلبث أن ترى الحمام فتطير

ذلك حديث الفتح ، لا يقلل من أهميته أو يحد من عظمته أن نرى تلك الدولة قد دالت أيامها وعادت سيرتها الأولى ، وذلكم طارق بن زياد البطل الخالد فى القلوب وحسبه بحب القلوب خلدا ، الماجد فى التاريخ ، وأعظم بحديث التاريخ مجداً ، الحميد الآثار ، ومن يستحق دون المؤثر حمدا ، القوى بسياسته وفتحه ، ومن أعظم من السياسى الفاتح أيدا . ذلكم طارق يستقبل أميره الناقم عليه بعد أن كلفه جليلا فأنجزه ، وأعده لخطير من الأمر فأنفذه ، وأعطاه لواء ضعيفاً فعززه ، يستقبله لا فى سلف المفتخر أو زهو المنتصر ، بل فى تواضع وهو المستلئم الدارع ، وفى خضوع وهو قائد الجيش اللجب وذو الفوز الساطع ، وفى قناعة ولو أراد لكان الطامح

الطامع ، وكأنى بابن نصير خشى أن يزدهى طارقا نصره ، فيشق عصا الطاعة ، ولكن طارقا كان الجندى النبيل والقائد العظيم ، وما أشبه موقفه هذا بموقف قائد المسلمين الأول خالد بن الوليد حينما عزله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عن إمارة الجيش فرجع إلى صفوف الجند :

يقوده حبشى فى عمامته ولا تحرك مخزوم عواليها

بل كان الجندى المطيع لرئيسه الذى كان من هنيـة مرءوسا ، وصار تابعاً وكان من قبل متبوعاً ، وعاد مأموراً ومن لحظة كان آمراً ، كذلك كان طارق الجندي المجهول إذ أصبح لموسى الجندى الشديد الطاعة ، وصرنا لا نعلم من أمره بعد أن تم الفتح على يديه ويدى موسى بن نصير إلا أنه عاد إلى الشام ، وبهامات ، ونختم كلمتنا تلك بأبيات من شعره إن فاتها حسن المطلع فحسبها نبل المنبع ، وإن تعدتها روعة القريض فلها بقائلها المجد العريض .

ركبنا سفينا بالمجـاز مقـيرا عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفوساً وأموالاً وأهلاً بجنـــة إذا ما اشتهينا الشيء فيها تيسرا
ولسنا نبالى كيف سالت نفوسنا إذا نحن أدركنا الذى كان أجدرا

عبد العظيم على قنارى